صورة الناقة في النص الجاهلي

د.عبد العالي بشير(*)

1. صورة

الناقة: استحوذت الناقة على وجدان الشاعر الجاهلي، فوصفها وأكثر من ذكرها في شعره، لأنها مركبة رحلته، ومطية أهله، وأنيسه في الصحراء، وهي غذاؤه وطعامه ولباسه.

وترمز الناقة في الشعر القديم إلى الصراع من أجل الحياة، وهي أيضاً وسيلة انطلاق الشاعر وسبيل إلى تحقيق وجوده. ويأتي وصفها في القصيدة القديمة ــ من حيث ترتيب أجزاء القصيدة ــ بعد الوقوف على الديار والبكاء عليها. فالرحلة بعد الوقوف أمر ضروري، لأنها وسيلة للتسلية ونسيان الهموم.

ولا تزال فكرة الناقة من أكثر الأفكار تعقيداً في الشعر الجاهلي وأكثرها حاجة إلى التمحيص. وسنحاول في هذا المقال الاقتراب من بعض النصوص الجاهلية التي وصف فيها أصحابها الناقة، محاولين الكشف عن معانيها العميقة، دون إقحام منهج لا يمت بصلة إلى روح الشعر الجاهلي. فاتجاه القصيدة وطريقتها هما اللذان يمليان علينا هذا المنهج أو ذاك.

1.1 في معلقة طرفة[1]: المعلقات هي قصائد مدحية مزدوجة الأقسام فيها قسم طللي وقسم مدحي، وقد علل توفيق قريرة هذا التقسيم بما يلي[2]:

---

* جامعة تلمسان.

(1) اعتبرنا نص طرفة نصاً مركزياً/ظاهراً تحاورت معه عدة نصوص أخرى، ونحن لا نزعم أنه أول نص في وصف الناقة، فقد تكون هناك محاولات أخرى ناجحة أو مخفقة سبق فيها أصحابها طرفة في وصف الناقة، ولكن المسوغ الوحيد الذي جعلنا ننطلق من نصه هو كونه يعتبر من أهم الشعراء الذين وصفوا الناقة بدقة متناهية.

ـ تعليل يرتكز على الخطاب المباشر.

القسم الأول يخص الطلل [مجازي/مادي/محطم].

القسم الثاني يخص الممدوح [حقيقي/تاريخي/معظم].

ـ تعليل يرتكز على الزمن الداخلي.

القسم الأول [استذكار].

القسم الثاني.[استحضار].

ـ تعليل يرتكز على الحدث العام.

القسم الأول [بكاء].

القسم الثاني [إعلاء].

استهل طرفة بن العبد معلقته، بما استهل به غيره من أصحاب المعلقات خاصة وشعراء العصر الجاهلي عامة، بذكر الأطلال والوقوف على الديار قائلاً:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ولكن الذي يهمنا من هذه المعلقة هو القسم الذي تعرض فيه إلى وصف ناقته والذي يقول فيه:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

أمون كألواح الأران نصأتها على لاحب كأنّه ظهر برجد

جمالية وجناء تردي كأنها سفنجة تبري لأزعر أربد

تباري عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد

تربعت القفين في الشوّل ترتعي حدائق موليّ الأسرّة أغيد

تريع إلى صوت المهيب وتتقي بذي خصل روعات أكلف ملبد

كأن جناحي مضرحيّ تكنّفا حفافيه شكّا في العسيب بمسرد

فطوراً به خلف الزميل وتارة على حشف كالشّن ذاو مجدد

لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف ممرد

وطيّ محال كالحنيّ خلوفه وأجرنة لزت بدأي منضّد

(2) كيف أشرح النص الأدبي؟ توفيق قريرة، قرطاج، 2000، تونس، ط/1، 1996، ص 31.

كأن كناسي ضالة يكنفانها — وأطر قسيّ تحت صلب مؤيّد
لها مرفقان أفتلان كأنها — تمر بسلمي دالج متشدد
كقنطرة الرومّي أقسم ربها — لتكتنفن حتى تشاد بقرمد
صهابية العثنون موجدة القرا — بعيدة وخد الرجل موارة اليد
أمرّت يداها فتل شزر وأجنحت — لها عضداها في سقيف مسنّد
جنوح دفاق عندل ثم أفرعت — لها كتفاها في معال مصعّد
كأنّ علوب النسع في دأياتها — موارد من خلقاء في ظهر قردد
تلاقى وأحياناً تبين كأنّها — بنائق غرّ في قميص مقدد
وأتلع نهاض إذا صعدت به — كسكان بوصي بدجلة مصعد
وجمجمة مثل العلاة كأنما — وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد
وخد كقرطاس الشامي ومشفر — كسبت اليماني قده لم يجرد
وعينان كالماويتين استكنتا — بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد
طحوران عوار القذى فتراهما — كمكحولتي مذعورة أم فرقد
وصادقتا سمع التوجس للسرى — لهجس خفي أو لصوت مندد
مؤللتان تعرف العتق فيهما — كسامعتي شاة بحومل مفرد
وأروع نباض أحد ململم — كمرداة صخر في صفيح مصمد
وأعلم مخروت من الأنف مارن — عتيق متى ترجم به الأرض تزدد
وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت — مخافة ملوي من القد مخصد
وإن شئت سامى واسط الكور رأسها — وعامت بضبعيها نجاء الحفيدد
على مثلها أمضي إذ قال صاحبي — ألا ليتني أفديك منها وأفتدي[3]

(3) ديوان طرفة بن العبد، دار بيروت للطباعة والنشر، 1982، ص 22 ــ 29.

يقول إنه يمضي همه وينفذ إرادته بركوب ناقته السريعة النشيطة الموثقة الخلق التي يؤمن عثارها في سيرها وعدوها، وهو حين يمتطيها يسوقها بالعصا، فتسير على طريق كأنه كساء مخطط، وهي تشبه الجمل في وثاقة الخلق واكتناز لحمها، ومثل النعامة في سرعة جريها، وقد تعرضت لظليم قليل الشعر يضرب لونه إلى الرماد. وهي تباري إبلاً أصيلة مسرعة، وتتبع وظيف رجلها بوظيف يدها فوق طريق مذلل بوطء الأقدام والحوافر. وترعى في حدائق واد ناعم التربة، بين نوق جفت ضراعها وقلت ألبانها. وعندما تعود إلى راعيها تجعل ذنبها حاجزا بينها وبين فحل متلبد الوبر تضرب حمرته إلى السواد، حتى لا تحمل منه وتظل خفيفة سريعة مكتنزة اللحم.

ويستمر طرفة في تشبيه ناقته، فيقول إن شعر ذنبها يشبه جناح نسر أبيض قد غرز في ذنبها، وتضرب تارة بذنبها على عجزها خلف دريف وأخرى على أخلافها التي جف لبنها، فغدت كالقربة البالية. ولها فخذان أكمل لحمهما كأنهما بابان لقصر عظيم طويل أملس، وكأن إبطيها في السعة بيتان من بيوت الوحش في أصل شجرة ضال، كمالها مرفقان بائنات عن جنبها كأنهما سقاء حمل دلوين أحدهما بيمينه والآخر بشماله. وتشبه هذه الناقة في تراصف عظامها وضخامتها قنطرة رجل رومي حلف صاحبها أن تبنى بالآجر. وهي صهبة العثون وفي ظهرها قوة وشدة، ويبعد ذميل رجليها وموردبها في السير، وهي كثيرة الذهاب والمجيء، أفتلت يداها فتلاً وأميلت عضدها تحت جنبين، فكأنهما سقف أسند بعضه إلى بعض.

وهي عظيمة الرأس، تميل عن الطريق لفرط نشاطها في السير، كأن آثار النسع في ظهرها وجنبها نقر في صخرة ملساء، أما عنقها الطويل ـــ حين ترفعه ـــ فهو أشبه بذنب سفينة في حال سيرها في نهر دجلة. ولها جمجمة تشبه العلاة في الصلابة، كأنما انضم طرفها على حد عظيم يشبه المبرد في الحدة والصلابة. أما خدها، فيشبه [في الانملاس] القرطاس ومشفرها [في اللين] جلد البقر المدبوغة. ولها عينان تشبهان مرآتين في الصفاء والنقاء والبريق، وكأنهما كهفان غائران، وحاجباها صخرة صلبة. وهاتان العينان تطرحان وتبعدان القذى عنهما فتراهما مثل عيني بقرة وحشية لها ولد وقد أفزعها صائد.

ويستمر طرفة في استكمال وصف أعضاء ناقته، وطبيعة الوصف تفرض عليه أن يتناول الأذنين [بعد وصفه العينين والخد والعنق والشفتين] فهما صادقتا السمع سواء أكان الصوت حركة خفية في الليل أم صوتاً مرتفعاً. وتستشف أصالة كرمها من نظرك إليها. فقلبها حساس كثير النبض، وهو صلب تحيط به أضلاع قوية. ولها مشفر مشقوق وأنف مثقوب، وهي حين ترمي الأرض بأنفها تزداد سرعة سيرها. وهي ناقة مروضة، فإن شئت أسرعت في سيرها، وإن شئت لم تسرع مخافة صوت ملوي القد موثق. فعلى مثل هذه الناقة يمضي طرفة في أسفاره ويبلغ غايته.

وقد وصف ابن سلام الجمحي شعر طرفة بالجودة، وعده على رأس الطبقة الرابعة الذين يقول فيهم: "وهم أربعة رهط فحول شعراء، وضعهم مع الأوائل، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة: طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد، فأما طرفة فأشعر الناس

واحــدة [يعني بها معلقته] [4]. فابن سلام قد حكم على شعر طرفة بالجودة، وإن أخذ عليه قلته، لأن الكم في ذلك الوقت كان من أهم المقاييس التي يقاس بها الشعراء.

ويقــول فــيه ابن قتيبة: "وله بعدها [أي المعلقة] شعر حسن، وليس عند الرواة من شعره إلا القليل" [5].

ونستشف من هذين القولين مدى تقدير النقاد القدماء لموهبة طرفة الشعرية ومكانته الفنية بين شــعراء العربية. ولكن الدكتور طه حسين يستبعد أن تكون الأبيات الكثيرة التي تضمنتها المعلقة في وصــف الــناقة مــن شعر طرفة لقوله: "... وليست هذه الناقة التي تقوم بينك وبين المعاني الرائعة والصــور الجميلة ناقة طرفة هي أكبر الظن، وإنما هي ناقة قد دست عليه دساً، وزجت في حظيرته زجــاً ليست منه وليس منها في شيء... ألست ترى في وصف الناقة إغراباً وتكلفاً للألفاظ التي يقل اســتعمالها، ويــندر أن تنطق الألسنة بها إلا عند الأخصائيين؟ ثم ألست ترى أن هذه الألفاظ الغريبة الــنادرة تقل وتكاد لا توجد في سائر القصيدة؟... فهذا الجزء من أجزاء القصيدة مصنوع، قد تقصد به إلى تعليم الشباب طائفة من أوصاف الإبل" [6]. كما شك في صحة نسبة هذا القسم من القصيدة إلى شــعر طرفة ورجح أن في هذه القصيدة شعراً قد صنعه علماء اللغة. ومع ذلك فقد وثق بعض النقاد المحدثيــن نسبة هذه الأبيات إلى طرفة، ومن بينهم الدكتور بدوي طبانة والدكتور مصطفى ناصف. أما نحن، فقد تعاملنا مع النص الموثق وتوصلنا إلى تسجيل الملاحظات النقدية الآتية:

- التقصير في تحقيق التوازن بين أجزاء القصيدة.
- الإكثار من الصور الحسية وتناثرها في القصيدة تناثراً ضعيفاً.
- المبالغة في وصف الناقة وتعداد أعضائها.

1. 2 في معلقة النابغة: يقول النابغة في وصف الناقة:

فعــد عمــا ترى إذ لا ارتجاع لــه	وانــم القــتود علــى عــيرانة أجــد
مقذوفــة بدخــيس الــنخص بازلها	لــه صــريف صــريف القعــو بالمسد
كــأن رحلــي وقــد زال الــنّهار بنا	يــوم الجلــيل علــى مســتأنس وحــد
مــن وحشــي وجرة موشى أكارعه	طــاوي المصــير كسيف الصيقل الفرد
ســرت علــيه مــن الجوزاء سارية	تزجــي الشــمال علــيه جــامد الــبرد
فارتــاع مــن صوت كلاب فبات له	طــوع الشــوامت من خوف ومن صرد

(4) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود شاكر، السفر الأول، دار القاهرة، ص 138.
(5) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ج/1، 1967، ص 137.
(6) حديث الأربعاء. طه حسين، دار المعارف بمصر، القاهرة، ج/1، 1959، ص 58.

فبثهن عليه واستمر به صمع الكعوب بريئات من الحرد

وكان ضمران منه من حيث يوزعه طعن المعارك عند المحجر النجد

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها طعن المبيطر إذ يشفي من العضد

كأنه خارجاً من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتأد

فظل يعجم أعلى الروق منقبضا في حالك اللون صدق غير ذي أود

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ولا سبيل إلى عقل ولا قود

قالت له النفس: إني لا أرى طمعا وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد[7]

مبدئياً يمكن أن نوجز معاني في هذا النص فيما يلي:

ـ تشبيه الناقة بالعير.

ـ تشبيهها بالثور الوحشي المتفرد.

ـ تصوير اعتراك الثور مع الكلاب.

وقد اشتمل النص على ثلاثة موضوعات متلاحقة متشابكة تشترك في معنى واحد، هو موضوع القوة والسرعة، فالشاعر كان مصمماً على تمثيل قوة ناقته وشدة احتمالها وسرعتها، ولكنه أدرك أن حشد الألفاظ وحده لا يكفي ولا يؤدي المعنى المطلوب. فاستعان بالثور في عدوه، حيث يسيطر مشهد القوة ويطغى على ما دونه. ولكي يغالي في ذلك اختار فترة حاسمة من حياة الثور ـ مطاردة الكلاب له ـ أي اللحظة التي ينفق فيها غاية جهده وأقصى قوته من أجل البقاء. ومن وصف الناقة استطرد إلى وصف الثور، فقال: إنه أبيض اللون في قوائمه نقاط سود، ضامر البطن كالسيف المصقول الذي لا مثيل له، وقد بات من الخوف الذي أدركه والبرد الذي أصابه قائماً لا ينام. ثم ينتقل من هذا المشهد إلى مشهد أروع، وهو سماع الثور صوت الكلاب [الصياد]، فانطلق هارباً من الخوف وحاول النجاة بنفسه، إلا انه لا مفر له ولا خيار له سوى مواجهة خصمه، فأقبل عليه يطعنه بقرنيه فيما غرز الكلب فيه أنيابه، وكل يتوسل السلاح الذي جهزته به الطبيعة.

وبعد هذا الاستطراد يعود لناقته، فيقول: إنها تكبد المشقة في سبيل الوصول إلى الممدوح. وما يلفت الانتباه ـ في نص النابغة ـ أن الوصف فيه لم يقم على فضيلة النعوت، بل على فضيلة تعاقب الحوادث وتسارعها.

[7] ديوان النابغة، تحقيق وشرح، كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980، ص 31 ـ 33.

وعلى العموم يبدو الشاعر في هذا النص وكأنه يؤدي سنة التقليد لا غير وما يعاب عليه أيضاً أن انتقاله إلى وصف الناقة كان بطريقة مبتورة ومفاجئة.

1. 3 في نص الأعشى: يقول الأعشى في وصف الناقة:

وفـــلاة كأنهـــا ظهـــر تـــرس ... لـــيس إلا الرجـــيع فـــيها عـــلاق

قـــد تجاوزتهـــا وتحتـــي مـــروح ... عنـــتريس نعّابـــة معـــناق

عـــرمس تـــرجم الإكـــام بأخفـــا ... ف صـــلابة مـــنها الحصـــى أفـــلاق

ولقـــد أقطـــع الخـــيل إذا لـــم ... أرج وصـــلا إن الإخـــاء الصّـــداق

بكميـــت عـــرفاء مجمـــرة الخـــ ... ف غذتهـــا عوافـــة وفـــتاق

ذات غـــرب ترمـــي المقـــدّم بالـــرد ... ف إذا مـــا تدافـــع الأرواق

فـــي مقـــيل الكـــناس إذ وقـــد اليو ... م إذا الظـــل أحـــرزته الســـاق

وكـــأن القـــتود والعجلـــة والـــ ... وفـــر لمـــا تلاحـــق السّـــواق

فـــوق مســـتقبل أضـــر بـــه الصيـــ ... ف وزر الفحـــول والتّـــنهاق

أو فـــريد طـــاو تضـــيّف أرطـــا ... ة يبيـــت فـــي دفهـــا ويضـــاق

أخرجـــته قهـــباء مســـبلة الـــود ... قـــرجوس قدامهـــا فـــرّاق

لـــم يـــنم لـــيلة الـــتمام لكي يصـــ ... بـــح حـــتى أضـــاءه الإشـــراق

ســـاهم الوجـــه مـــن جدلية أو أحـــ ... يـــان أفـــنى ضـــراءه الإطـــلاق

وتعـــادى عـــنه الـــنهار تواريـــ ... ـــه عـــراض الـــرّمال والـــدّراق

وتلـــته غضـــف طـــوارد كالـــنح ... ل مغاريـــث همهـــن اللحـــاق[8]

وقـــد مـــزج الأعشى في هذه المقطوعة بين أوصاف الناقة ومشاق السفر لينتقل إلى تصوير الطرائد، وما يصادف ناقته من مخاطر، مشبهاً إياها بحمار الوحش. وصورها في فلاة مقفرة لا تجد فيها الإبل ما تأكل سوى الاجترار. ويقول إنه تجاوز هذه الفلاة على ظهر ناقة نشيطة قوية مسرعة وصلبة ترجم الأرض المرتفعة بأخفافها، فتشق ما فيها من حصى شقاً، ثم يشبهها في سرعتها بحمار

---

(8) ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت، ص، 127 ـــ 128.

الوحش، الذي يقاسي من حر الصيف وعض أمثاله ولا يمضي طويلاً مع هذا الحمار، بل يتركه إلى ثـور وحشي يشبه به ناقته ويصوره طاوياً في إحدى ليالي الشتاء القاسية وقد لجأ إلى شجرة الأرط يحتمي بها. والمطر يسقط من حوله والفزع يأخذه من كل جانب، ثم خرج فزعاً يتوارى في عرض الرمال وكثبانها، وما لبثت كلاب الصيد أن رأته. فطاردته بغية اقتناصه، فأسرع يحاول فوتها.

ومـا يلاحظ على هذه المقطوعة بصفة عامة هو أن الأعشى لم يطل في تصوير ناقته إطالة طرفة أو النابغة أو لبيد أو غيرهم من الشعراء الجاهليين.

1. 4 في معلقة لبيد: يقول لبيد في وصف الناقة

بطلـيح أسـفار تركـن بقـية	**منها فأحنق صلبها وسنامها**
وإذا تغـالى لحمهـا وتحسـرت	**وتقطعت بعد الكلال خدامها**
فلهـا هـبات فـي الـزمام كأنها	**صهباء خف مع الجنوب جهامها**
أو ملمـع وسـقت لأحقـب لاحه	**طرد الفحول وضربها وكدامها**
يعلـو بهـا حـدب الأكـام مسحج	**قد رابه عصيانها ووحامها**
بأحـزة الـثلوب يـربأ فوقهـا	**قفز المراقب خوفها آرامها**
حـتى إذا سـلخا جمـادى سـتة	**جزءاً فطال صيامه وصيامها**
رجعـا بأمـرهما إلـى ذي مـرة	**حصد ونجح صريمة إبرامها**
ورمـى دوابـرها السـفا وتهيجت	**ريح المصايف سومها وسهامها**
فتـنازعا سـبطاً يطـير ظلالـه	**كدخان مشعلة يشب ضرامها**
مشـمولة غلثـت بنابـت عـرفج	**كدخان نار ساطع أسنامها**
فمضـى وقدمهـا وكانـت عـادة	**منه إذا هي عردت أقدامها**
فتوسـطا عـرض السري وصدعا	**مسجورة متجاوراً قلامها**
محفوفـة وسـط الـيراع يظلهـا	**مـنه مصـرع غابـة وقـيامها**
أفـتلك أم وحشـية مسـبوعة	**خذلـت وهاديـة الصـوار قوامهـا**
خنسـاء ضـيعت الفريـر فلم يرم	**عـرض الشـقائق طوفهـا وبغامها**

لمعفـــر قهـــد تـــنازع شـــلوه غـــبس كواســـب لا يمـــن طعامهـــا

صـــادفن مـــنها غـــرة فأصـــبنها إن المـــنايا لا تطـــيش ســـهامها

باتـــت وأســـيل واكـــف مـــن ديمة يـــروي الخمـــائل دائمـــاً تســـجامها

يعلـــو طـــريقة متـــنها مـــتواتر فـــي لـــيلة كفـــر الـــنجوم غمامهـــا

تجـــتاف أصـــلاً قالصـــاً متنـــبذا بعجـــوب أنقـــاء يمـــيل هـــيامها

وتضـــيء فـــي وجه الظلام منيرة كجمانـــة الـــبحري ســـل نظامهـــا

حـــتى إذا انحســـر الظلام وأسفرت بكـــرت تـــزل عـــن الـــثرى أزلامها

علـــت تـــردد فـــي نهـــاء صعائد ســـبعاً تؤامـــاً كـــاملاً أيامهـــا

حـــتى إذا يئســـت وأســـحق حالق لـــم يـــبله إرضـــاعها وفطامهـــا

وتوجســـت رز الأنـــيس فـــراعها عـــن ظهـــر غيـــب والأنيس سقامها

فغـــدت كـــلا الفرجيـــن تحسب أنه مولـــى المخافـــة خلفهـــا وأمامهـــا

حـــتى إذا يـــئس الـــرماة وأرسلوا غضـــفا دواجـــن قـــافلاً أعصـــامها

فلحقـــن واعـــتكرت لهـــا مدريـــة كالســـمهرية حدهـــا وتمامهـــا

لتذودهـــن وأقينـــت إن لـــم تـــذد أن قـــد أحـــم مـــن الحتوف حمامها

فتقصـــدت مـــنها كســـاب فضرجت بـــدم وغـــودر فـــي المكـــر سخامها

فبـــتلك إذ رقـــص اللوامع بالضحى واجـــتاب أرديـــة الســـراب إكامهـــا

أقضـــي اللـــبانة لا أفـــرط ريـــبة أو إن يلـــوم بحاجـــة لوامهـــا[9]

لقـــد اســـتطاع لبيد في هذه المعلقة على خلاف غيره من الشعراء أن ينقل القارئ من المقطع الغزلـــي إلـــى وصف الناقة بهدوء دون أن يشعر بالفجوة التي كانت تعترض سبيله وهو يتابع قراءة القصيدة القديمة.

---

(9) ديوان لبيد بن ربيعة، دار صادر، بيروت، 1966، ص 168ـ 174.

ونستطيع القول إن الناقة في نص لبيد هي وسيلة لوصل الحبائل أو قطعها، فبعد أن صمم على قطع علاقته بـ "نوار" وجد كل شيء يدعوه إلى ركوب ناقته ليمضي بها ضارباً صفحاً عن الماضي وعن حبيبته. وقد صورها في صور ثلاث:

الصورة الأولى: شبه فيها سرعة الناقة في سيرها بسرعة السحابة الحمراء التي أسقطت ماءها، فأصبحت بذلك أخف وأسرع.

الصورة الثانية: صور فيها ناقته بأتان وحشية قد حملت من فحل شديد الغيرة عليها يلازمها أينما ذهبت ويطارد عنها الفحول التي تهاجمها متعرضاً إلى العض والضرب. وبالرغم من المعركة التي دارت بين هذا الفحل والحمر الوحشية، فإن ذلك لم يصرفه عن العناية بالأتان، والحرص عليها، والابتعاد بها عن الأماكن التي تتعرض فيها لملاحقة الحمر الأخرى. وقد زاد تعلقاً بها تمنعها عليه، وهي تجتاز مرحلة الحمل والوحم، وقد كانت من قبل طيعة مما جعله يعتلي بها ربوة ليكون في مأمن من مزاحمة الفحول الأخرى ولمراقبة الصيادين. وتظل هذه الأتان وفحلها فوق هذه الربوة طيلة شهور الشتاء يطعمان من نبات رطب حتى إذا حل فصل الصيف وتحركت رياحه الحارة، انطلقا في سرعة الريح، يتجاذبان معاً في عدوهما نحو الماء غباراً كثيفاً كأنه الثوب أو كأنه دخان نار مشتعلة وقد هبت عليها ريح الشمال فزادتها اشتعالاً.

ثم ينتقل الشاعر إلى بيان مدى عناية الفحل بأتانه، فهو حريص على أن تظل أمامه، حتى لا تتأخر عنه فيفقدها، وما يزالان كذلك حتى يبلغا النهر الذي يريدان فيقعان على عين ممتلئة بالماء فيشقها فرحين.

الصورة الثالثة: شبه فيها ناقته بالبقرة المسبوعة التي أكل السبع ولدها، وقد كشف لنا في هذه الصورة عن قصة من قصص الصراع الدامية في مواجهة تحديات الطبيعة ومحاولة التغلب عليها. فما كادت هذه البقرة تمضي في طريقها مع القطيع حتى اكتشفت أنها تخلت عن ولدها فعادت لتبحث عنه في كل مكان، ترسل صيحاتها هنا وهناك فتذهب صيحاتها سدى، لأن ولدها قد لقي مصرعه واستحال إلى جثة هامدة ملقاة على الأرض تتجاذب أشلاؤه الذئاب المدربة على الصيد.

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى تتبع اللحظات التي عاشتها البقرة بعد موت ولدها، وإذا كل لحظة تمثل حلقة في سلسلة العذاب والشعور بالوحشة، فقد كانت ليلة رهيبة تلك التي قضتها البقرة عقب مصرع ولدها، ليلة تعاونت فيها مظاهر الطبيعة إلى إشاعة هذا الجو الحزين. ثم يمضي بعد ذلك إلى تصوير الآلام التي عانتها البقرة من جراء تساقط الأمطار المتلاحقة والباردة على ظهرها مما

اضـــطرها إلى البحث عن مكان تحتمي فيه من هذا المطر، فلم تجد من سبيل إلاّ أن تدخل في جوف شجرة تقلصت أغصانها وانكمشت من شدة البرد.

وبعـــد أن صور الشاعر الناقة في تلك الليلة الرهيبة عاد ليتتبع خطاها، فإذا ما انكشف الظلام لـــم يزدها طلوع النهار إلا أسى ولوعة، وإذا بخطواتها مهزومة لا تكاد تمشي حتى تعثر فلا تقوى قوائمهـــا على حملها. ثم يستطرد في وصف جزع البقرة التي لم ينقطع حنينها لولدها وهي منهمكة في الجزع، تروح وتجيء في هذا المكان لا تفارقه سبعة أيام بلياليها، ولا يرقأ لها جفن ولا يهدأ لها بال، حتى إذا يئست من اللقاء بولدها جف ضرعها الذي كان ممتلئاً لبناً. وما كادت البقرة تنتهي من الـــيأس من لقاء ولدها حتى باغتها، وهي في خلوتها صوت خفي لإنسان، فأفزعها هذا الصوت وإن لـــم تعلـــم مصدره أو تتبين حقيقته. ثم أدركت بغريزتها أن هذه الوقفة الجامدة لن تنقذها من الخطر الذي يداهمها، فلم تمض لحظات حتى انطلقت في عدو سريع، وعندئذ أطلق الرماة وراءها سهامهم، فلمـــا ذهبـــت هـــذه السهام أدراج الرياح ويئس الرماة من أن ينالوها، أطلقوا وراءها كلاب الصيد المسترخية الآذان الضامرة البطن، ولكن البقرة كانت قد أسرعت إلى الكلاب، فطعنتها بقرن كالرمح فـــي حدته وطوله، وأيقنت أنها في موقف لا ينفع فيه التردد أو الخوف، هي إن لم تقتل الكلاب قتلها الصياد وكلابه.

الخلاصة:

توصلنا أثناء تعاملنا مع هذه النصوص إلى ضبط الملاحظات الآتية:

* تولد عن نص طرفة [الظاهر Phéno - texte] عدة نصوص أخرى تعرض فيها أصحابها أيضاً إلى وصف الناقة.
* ممـــا لاشـــك فيه أن هؤلاء الشعراء قد اطلعوا على نصوص بعضهم وحاولوا النسج على منوالها بدافع التقليد الإرادي.
* تناصـــت هذه النصوص في الموضوع [وصف الناقة] وفي الطريقة [وصف الناقة جاء بعد الوقوف على الديار والبكاء على الطلل].
* يحس القارئ في هذا الانتقال بسلطان التقليد وصرامته.
* يلاحـــظ أيضاً الاستطراد من وصف الناقة إلى وصف بعض الحيوانات في الصحراء كبقر الوحش والأتان وحمار الوحش والظليم.
* اشتركت هذه النصوص في الصور الآتية:

ـــ تشبيه الناقة بالبقرة الوحشية.

ـــ تشبيهها بحمار الوحش مع أتانه.

ـــ تشبيهها بالظليم.

وهذه الأوصاف كلها مشتقة من معاني القوة.

* كانت الناقة في القصيدة القديمة نوعاً من التفريج من أسر الخيبة التي انتابت الشاعر عندما وقف على الديار الخاوية، وهي وسيلة سفر للوصول إلى الممدوح، وترمز بصفة عامة إلى الثبات والصمود والمقاومة.

ونشير في الأخير إلى أننا صنفنا هذه النصوص ضمن التناص الطبقي، لأننا لاحظنا أن كل الشعراء أثناء وصفهم للناقة كانوا يلبون حاجة التقليد المفروض على بنية القصيدة القديمة أكثر من تلبية لحاجة في نفوسهم.

*****

المصادر والمراجع

1 ــ حديث الأربعاء، طه حسين، دار المعارف بمصر، القاهرة، ج/1، 1959، ص 58.

2 ــ ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت، ص 127 ــ 128.

3 ــ ديوان طرفة بن العبد، دار بيروت للطباعة والنشر، 1982، ص 22 ــ 29.

4 ــ ديوان لبيد بن ربيعة، دار صادر، بيروت، 1966، ص 168 ــ 174.

5 ــ ديوان النابغة، تحقيق وشرح، كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980، ص 31 ــ 33.

6 ــ الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ج/1، 1967، ص 137.

7 ــ طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود شاكر، السفر الأول، دار القاهرة، ص 138.

8 ــ كيف أشرح النص الأدبي؟ توفيق قريرة، قرطاج، 2000، تونس، ط/1، 1996، ص 31.